الاستعمار الأكاديمي وأزمة إنتاج المعرفة

أ.د . ثريا بن مسمية*

جامعة الزيتونة

المستخلص

الاستعمار الأكاديمي أو الاستتباع المعرفي للغرب يعتبر أحد أهم الإستراتيجيات الاستعمارية الأوروبية، فالحقل الأكاديمي باعتباره أهم مكونات الوعي الثقافي والحضاري للشعوب كان المدخل الأمثل لهيمنة الغرب على الشرق .

لذا كان خطاب حوار الحضارات مثلًا خطابًا لا متكافئًا بين شرق متأزم أقتصاديًا واجتماعيًا وسياسيًا وغرب مستقطب له ..ماحيًا لهويته وتقاليده الثقافية بدعوى الانفتاح والتقدم ...والحصيلة كانت شرقًا تابعًا مقابل غرب متبوع ...وبان التغريب الثقافي كأشد أنواع الاستتباع للغرب ..فيه انسلاخ وذوبان في الآخر بطمس الهوية الفكرية والثقافية وحتى الدينية ...

Academic Colonialism and the Crisis of Knowledge's Production

Academic colonialism or the knowledge subordination toward the west considered one of the most important European colonial strategies. The academic field, as the most important components of the cultural and civilizational awareness of peoples, considered the ideal entrance to the West's dominance over the East.
Therefore, the discourse of dialogue among civilizations, for example, was an unequal discourse between an economically, socially and politically crisis and a polarized West... erasing its identity and cultural traditions under the pretext of openness and progress... The result was a dependent East versus a subordinate West... and cultural Westernization as the most severe form of subordination to the West... The dissolution and dissolve of the other by blurring the intellectual, cultural and even religious identity

* **باحثة وأستاذة فلسفة الجمال بكلية أصول الدين – جامعة الزيتونة – تونس.**

المقدّمة:

إذا كان من تصنيف دقيق لإستراتيجيات التغريب التي وضعتها المركزية الأوروبية وهي تتعامل مع نخب الشرق العربي والإسلامي ابتداءً من مرحلة الاستعمار الجديد، فسيكون للتغريب الأكاديمي مكانة مركزية في تلك الإستراتيجيات. ويمكن القول إن البعثات الاستعمارية حتى تلك التي جرت قبل حملة (نابوليون بونابرت) على مصر، قد أقامت للحقل الأكاديمي أهمية استثنائية، باعتباره الحقل الذي من خلاله تعيد صناعة الوعي، وإطاحة التقاليد الثقافية التي تشكل في الحقيقة خط الدفاع الأول عن قيم شعوب المنطقة المعنوية والأخلاقية والدينية.

ولقد بدا واضحًا كيف تعاملت البعثات الاستشراقية مع المدارس والمعاهد والجامعات في العالمين العربي والإسلامي في سبيل تحقيق هذه الغاية الاستعمارية. وعلى أيَّة حال فقد تعدَّدت التّيارات التغريبية ذات الأبعاد السّياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة والفنّية. ومن بينها نلفي تيّار التّغريب الأكاديمي الضّارب بجذوره في عصور الاستعمار القديم والمستحدث، كما يتموضع بقوة في مسار الحياة الإنسانيّة الرّاهنة المتنوّعة من جهة مكوّناتها الثّقافيّة. أما غايته الكبرى فهي طبع الحياة المعنوية والثقافية في بلادنا بطابع الغرب وأسلوب حياته تحقيقًا لأبرز الأهداف وهي الدّوران بلا هوادة في فلك المركزّية الغربيّة.

وإذا كان المشغل العامّ الذّي تندرج فيه دراسة هذا التّيار، هو حوار الحضارات، فإنّ اللّافت للانتباه هو طبيعة هذا الحوار اللاّ متكافئ. فهو يدور بين شرق يعاني مختلف الأزمات الاقتصادية والاجتماعيّة والسّياسيّة، وغرب تجاوز الذّات إلى ما يحصّنها ويجعل منها مركزًا مستقطِبًا. **فالتّنمية عند أغلب النخب العربيّة تنهض على ربط المصير العربي الإسلامي بمسالك التّقدّم الغربي اعتبارًا لوحدة المصير الإنساني. وهو توجّه يضحّي بالفوارق الهُوويّة والخصوصيّات الحضاريّة.**

1- عوامل التغريب وعلاماته التأسيسية

لقد وجد هذا التّيار التّغريبي جذوره في المحاولات الإصلاحيّة التّي رام أصحابها، منذ القرن التّاسع عشر، تحقيقها بالأخذ عن الغرب ما يلائم الشريعة من التّنظيمات المدنيّة مثل "خير الدّين باشا التونسي" (ت 1890 م) في مقدّمة كتابه "أقوم المسالك في معرفة أحوال ممالك" و "رفاعة رافع الطّهطاوي المصري" (ت1873 م)في كتابه " تخليص الإبريز في تلخيص باريس". ولكنّ الفارق النّوعيّ بين هذه المنطلقات الإصلاحيّة وجوهر التّيار التّغريبي هو أنّ الوجه الحقيقي للغرب والمتمثّل في الاستعمار والنّزعة التّوسّعيّة. لم يكن جليًّا أمام المصلحين على عكس أصحاب التيار التغريبي الذين جاؤوا تأريخيًّا بعد حروب ماديّة وثقافيّة.

وبصفة إجماليّة، يظلّ التّغريب معبّرًا عن صيرورة لإحداث التّشابه الهجين بين طرفين. والمهمّ أنّ التغريب تيّار يتّسم بالقهريّة والإجباريّة، سواء وعى المتغرّب العربي والمسلم ذلك أم لم يعِ. فالتّغريب يبدأ بالإعجاب ثمّ الانبهار ثمّ التّعلّق ثمّ الاندماج والانصهار. وهو ما يفضي إلى أن يكون الشّرق تابعًا والغرب متبوعًا في المستوى الثّقافي أساسًا؛ لأنّه يتضمّن أساليب العيش وطرائق التّفكير. وما من شكّ في أنّ أخطر أنواع التّغريب هو التّغريب الثّقافي؛ لأنّه هو الضّامن لتحقيق التّلاعب بالعقول وإنجاز الانسلاب والانبتات عن الجذور. وهو ما يندرج ضمن إستراتيجيّة محو كلّ القوى الحيويّة المضادة والمقاومة لإرادة المسخ والذّوبان من قبيل الدّين واللّغة. فما هي أهمّ العوامل الدّاعية لدوران بعض النّخب الأكاديميّة العربيّة في فلك التّغريب؟

قبل الخوض في عوامل التّغريب تجدر الإشارة إلى أنّ المقصود بهذا المصطلح هو العمل على خلق عقليّة تنهض على مقاييس الفكر الغربي وتوجّهاته المختلفة من أجل تحقيق هدف أساسي هو محاصرة المنتوجات الفكريّة الإسلاميّة ومناوأتها ومصادمة القيم الشّرقيّة بصفة عامّة. والعمل على تهديمها لفسح المجال أمام سيادة الحضارة الغربيّة. وهكذا تتعمّق المركزيّة الغربيّة الّتي تعمل على تحقير مكوّنات الحياة الشّرقيّة ونبذ المكوّنات الهُوويّة وإبعادها عن مراكز الضّغط والتّأثير. فالأرضيّة النّظريّة لتيّار التّغريب الأكاديمي هو تحطيم معالم الشّخصيّة المميّزة للحضارة الإسلاميّة، وهذا التّيار يستعمل أدوات التّرغيب والتّرهيب في استمالة أنصاره. وهو يعمد إلى تحقير

الآخر وتهجينه، وإلى تمجيد الغرب وتعظيمه. وبذلك يقضي على الاختلاف البنّاء. علمًا أنّ البحث العلمي أبعد ما يكون عن العاطفة والتّجييش والحماسة.

ولمّا كانت العوامل تتظافر بصفة طبيعيّة في بلورة أيّة ظاهرة اجتماعيّة وثقافيّة، فإنّ العوامل الكامنة وراء ظاهرة التّغريب عديدة ومتنوّعة، لعلّ من أبرزها العامل النّفسي الذّي ضبطه "ابن خلدون" وحدّد معالمه في قولته الشّهيرة "المغلوب مولع أبدًا بتقليد الغالب"[1] وقد توسّع المفكّر الجزائري "مالك بن نبّي" في تحليل هذا العامل وعبّر عنه بطريقته الخاصّة عندما أطلق عليه عبارته المميّزة وهي "القابليّة للاستعمار". وحسب رأيه يتظافر جفاف الرّوح وضبابيّة الرّؤية وانفصام الشّخصية وتهرّؤ النّسيج الاجتماعي لتكريس تخلّف المجتمع الإسلامي الذي انطمست فعاليّته الحضاريّة لتحلّ محلّها القابليّة للاستعمار. ولا شكَّ في أنّ ضعف الحصانة الحضاريّة والاجتماعيّة مهدّد بتغلّب الآخر مؤذن باختراقه الذات[2].

وفي فضاء هذا العامل الدّاخلي، كانت الحياة العقليّة والثّقافيّة في العالم الإسلامي تتّسم بالجمود والتّحلّل والتّقليد، ولا سيَّما في أواخر عهد الخلافة العثمانيّة. وهذه الحالة يسمّيها "مالك بن نبيّ" بتهرّؤ شبكة العلاقات الاجتماعيّة، حيث التّكلّس الفكري والتّأخّر الثّقافي وغلبة التّقليد وعدم الاهتمام بالوقت والإنسان والتّراب، وعلى نقيض ذلك يقترح حلولًا نهضويّة من قبيل توجيه الثّقافة وتوجيه العمل وتوجيه رأس المال[3]. وهو ما جعل إمكانيّة اختراقها من الثّقافة الغربيّة المتصاعدة أمرًا ميسورًا.

إنّ هذا العامل يجعل الأكاديميين العرب في وضع لا يحسدون عليه لأنّهم ينوسون بين تراث يجهلونه وحضارة غربيّة يعيشون على هامشها ولا يفعلون فيها. وعليه فهم يحيون في ما هويّة تُزهق روح الإبداع، وتحنّط علاقة الإنسان بالحياة وتقودهم إلى خارج العصر حسب عبارة أبي القاسم حاج حمد[4].

---

[1]- عبد الرّحمان بن خلدون، المقدّمة، دار عالم الثّقافة للنّشر والتّوزيع، وبالتّحديد الفصل الثّالث والعشرون: في أنّ المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، ص 184.

[2]- انظر ناجي الحجلاوي، التفكير الاجتماعي عند مالك بن نبي، الدّار التّونسيّة للكتاب، ط 1، تونس، سنة 2011، ص ص 101، 102.

[3]- مالك بن نبّي، شروط النّهضة، دار الفكر، دمشق،1979 م، ص109 وما بعدها.

[4]- أبو القاسم حاج حمد، منهجيّة القرآن المعرفيّة، دار الهادي للنّشر والتّوزيع، ط1، س2003، ص 248.

والجدير بالملاحظة هو أنّ العامل الدّاخلي المشار إليه آنفًا قد تظافر مع عامل آخر خارجي يتمثّل في أنّ القوى الاستعماريّة لمّا يئست من جدوى البقاء على أرض المستعمرات تحت وطأة حركات المقاومة المتصاعدة وتزايد الخسائر الماديّة والمعنويّة في صفوف جنودها والإضرار بمصالحها، قد آثرت الخروج من باب ما سُميَّ بالتّحرر الوطني وأحقّيّة الشّعوب في تقرير المصير، لتعود من نوافذ الاستعمار الجديد النّاعم في أساليبه والمغلّف بغلاف العولمة الّتي تروم سير كلّ الشّعوب في سبيل الفلك الواحد. وهو ما اصطلح على تسميته بالاستعمار الجديد أو الإمبرياليّة حيث الحروب بين أصحاب رؤوس الأموال على افتكاك المراكز واحتلال أكبر قدر ممكن من المستعمرات لضمان الأسواق واليد العاملة[5] ، وهكذا تمّ التّسويق لبعض المفاهيم وتسويغ بعض الاصطلاحات من قبيل العلمانيّة والفردانيّة ففرضت أنماطا من التّفكير تحصّن الدّين في الزّاوية باعتباره عنصر تخلّف لا علاقة له بالفضاء العامّ ولا بالحياة المشتركة، وقد انبرت جهود كثيفة لكسر الكثير من البنى الذّهنيّة بدلًا من معالجتها ونقدها وتطويرها فأضحت الازدواجيّة هي الطّابع المميّز للحياة في كلّ مستوياتها العمرانيّة والتّعليميّة واللّغويّة والذّوقيّة.

والنّتيجة أنّ البرامج التّعليميّة صُنعت على عين هذه الدّوائر التّغريبيّة المنحازة لطرف من طرفيْ الثّنائيّات المتحكّمة في تصوّرات الأجيال وعقولهم على طرف آخر. فصرنا أمام تقليديّ مقابل حداثيّ، وتقدّميّ إزاء رجعي، ومتقدّم مقابل متخلّف، والذّي زاد الطّين بِلّة والمريض عِلّة أنّ هذه البرامج التّعليميّة قُدّت بشكل يعمّق الفجوة بين طرفيْ الازدواج ما أدّى إلى تفكّك الرّوابط الثّقافيّة والأسريّة والاجتماعيّة بصفة عامّة. إنّ التّغريب الأكاديمي مرض حضاري مركّب؛ لأنّه ينبني في جوهره على سلب الذّات والتّأسيس له بأدوات تبدو علميّة منضبطة بمناهج، وهي في حقيقة الأمر ترتكز على مقولة الكمّ بدلًا من الكيْف، ومن ثمّ تعمل الموجّهات التّغريبيّة على تشجيع نزعات الاستهلاك بدلًا من التّركيز على التّسلّح بأدوات المعرفة المنتجة للعلوم والتّكنولوجيا.

جليّ، حينئذ، أنّ التّغريب يصدر عن معرفة استشرافيّة تعتبر أنّ التّعليم هو المجال الحيوي الذّي يصنع العقول ويدرّب النّفوس ويبني الذّات الإنسانيّة. وعليه فهو الفضاء الكبير الذّي يراهن عليه التّغريب الأكاديمي. إنّ قوّة العامل الخارجي تزداد صلابة عندما تتحوّل إلى قوّة ضاغطة تجعل

[5]- هاري ماجدوف، الإمبرياليّة من عصر الاستعمار حتّى اليوم، مؤسّسة الأبحاث العربيّة، ط1، س 1981 ص100 وما بعدها.

الفكر السّياسي حارسًا لأهمّ أهدافها، والثّقافة خادمة لأهمّ مراميها، وأهل الاجتماع أشبه ما يكون بالممثّلين على مسرح التّغريب.

لقد عرفت الثّقافة العربيّة الإسلاميّة، بعد ازدهارها حينًا من الدّهر جفّت فيه منابع الإبداع وتغلّب فيه النّقل على العقل فأضحى الفعل انفعالًا، والإنجاز إعجازًا، والإبداع بدعة، والحديث محدثًا، وانغلقت السّنّة الثّقافيّة. وفي ذات اللّحظة بدأت القارّة العجوز من نومها وتنفض عن نفسها غبار الأعصر المظلمة بالفقر والجهل والمرض والحروب الدّينيّة، وهذه الدّورة الحضاريّة اللّامتكافئة دعت إلى تنظيم رحلات استكشافيّة وبعثات علميّة من بلدان عديدة كمصر والشّامّ واليابان، فكانت الفرصة الذّهبيّة أمام صانعي القرار الغربي لإحكام أدوات التّحكّم في مصائر الأجيال المتلاحقة عبر وضع أسس التّغريب المتينة. وهكذا عادت البعثات العلميّة بالتّبشير العميق بحضارة النّور الذّي لا ينطفئ والتّي سبقت إلى التّقدّم بأشواط.

2- مظاهر التّغريب:

إنّ اجتماع العامليْن الأساسييْن الدّاخلي والخارجي المذكورين آنفًا من شأنه أن ينجز برامج التّغريب الشّاملة لكلّ مستويات الاجتماع. إذ تدخّل الإعلام المرئي والمسموع لتثبيط العزائم والتّشكيك في القدرات، والإعلام يستعين بمحاورة الأكاديميين لإضفاء الصّبغة العلميّة والمعرفيّة على هذه البرامج المبطّنة بالرّغبة في خذلان القوى المحلّيّة والوطنيّة على الجهود التّي تبذلها النّخبة في المدرّجات الجامعيّة من الدّعوات المجّانيّة ومدفوعة الأجر لصناعة عقول مغتربة. إنّ التّيار التّغريبي يقوم أساسًا على استقطاب الفرد ولا سيَّما إذا كان أكاديميًّا بارزًا لاقتناعه المسبق بقدرته على الإشعاع والتّأثير فيمن حوله. ولعلَّ أبرز مثال على هؤلاء هو مجموعة المثقّفين المسيحيّين العرب ومنهم "سلامة موسى" القائل: " يجب علينا أن نخرج من آسيا وأن نلحق بأوروبا، فإني كلما ازدادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له، وشعوري بأنه غريب عني. وكلما زادت معرفتي بأوروبا زاد حبي لها وتعلقي بها وزاد شعوري بأنها مني وأنا منها"[6]. ومن هذا المنطلق الوجداني يظهر التّغريب في أوضح تجلّيّاته في المواقف ممجّدة للغرب من جهة ، ونابذة للتّراث نبذًا صريحًا

[6]- سلامة موسى، اليوم والغد، مؤسّسة هنداوي سي آي سي، سنة 1991، ص16.

بما فيه من إيجابيّات وسلبيّات، من جهة أخرى. كما يتجلّى في التّعصّب للّغات الأجنبيّة وفي دعوات صريحة لمناصرة الفرنكفونيّة والإنجلوسكسونيّة، وفي اللّباس وفي الأكل والأغاني والرّسوم والمسرح والسّنيما. ومن ثمّ يتمّ العزوف الكلّي على الاهتمام بمشاغل الدّولة الوطنيّة والأمّة بصفة عامّة؛ لأنّ أهمّ مظهر للتّغريب هو إلحاق الشّلل بحركة التّفاعل الحيوي مع مكوّنات الهويّة الأصيلة التّي تمثّل الخزّان الحضاري والمولّد الحقيقي للقيم والأخلاق.

وإذا كان التّثاقف بين الأفراد والجماعات أمرًا ضروريًّا وله فوائد لا تحصى، بحسب قانون التّأثير والتّأثّر، فإنّ التّغريب الأكاديمي لا يولي لهذا الجانب أيّة أهمّيّة لأنّه ينظر إلى المسألة بعين واحدة باعتباره عدم صلاحيّة التّراث للاستمرار، مقابل صلاحيّة الاستعمار لكلّ شيء. وهذه الرّؤية الأحاديّة للقضايا جعلت من التّغريب الأكاديمي يظهر بمظهر الجنين المشوّه الّذي يُلحق الأذى بأوليائه، ولا هوّ يتمتّع بدوره بسحر الحياة وجمال الوجود.

وعلى هذه الّشاكلة تتمّ عمليّة هضم المنتجات الغربيّة واستهلاك القيم المصاحبة لها، فيتمّ التّرويج للكتاب الأجنبي والفلم الوافد والمجلّة العابرة للآفاق. ولا سيَّما ما أحدثته الثّورة الاتّصاليّة من قدرة على ترويج الأفكار والرّؤى والقيم الغربيّة المدمّرة لكلّ خصوصيّة وذاتيّة، والطّريف في كلّ ذلك أنّه يروّج باسم الحريّة وضرورة الانفتاح.

3- مخاطر التّغريب الأكاديمي

تتحدّد قيمة كلّ ظاهرة اجتماعيّة أو ثقافيّة بحسب الحجم الذّي تحتلّه، وبحسب النّتائج المنجرّة عنها. ولمّا كان أهمّ رصيد تملكه المجتمعات العربيّة الإسلاميّة هو رأس مالها البشري، وما يحيل عليه من طاقات وذكاء وكفاءات، فإنّ هذا الرّصيد قد ظلّ في مهبّ التّعرّض إلى الاهتزاز والتّخريب. والملاحظ، أنّ التّغريب الذّي تسلّل من بوّابة الأكاديمية يعمل بكلّ حزم على تنفيذ مخطّطاته وإرساء قواعدها عبر إنشاء مدارس ومعاهد عليا تضمن له الاستمرار. وهي شواهد عينية تشهد له بالتّفوّق والامتياز، بما يمتلكه من تجهيزات عصريّة وإمكانات مادّيّة وتكنولوجية كبيرة. وهي طريقة تنسجم تمام الانسجام مع المكافآت والتّحفيزات التّي ترصد لحرّاس أهداف

التّغريب، ما ينعكس سلبًا على السّلّم الاجتماعية والانسجام بين الفئات المتنوّعة والمتباينة في الانتماء .

إنّ الخطر الجاثم على كاهل الأوطان والبلدان التّي تدعى بالسّائرة، في طريق النّمّو من التّغريب الأكاديمي هو النّقلة النّوعيّة من الحوار بين الحضارات حيث العلاقة الأفقيّة ومعاملة النّدّ للنّدّ، إلى الغزو الحضاري المتجاوز لكلّ حدود الاحترام وتقدير الشّعوب ومالها من مقدّرات . إنّ فعل الغزو الذّي انجرّ عن تيّار التّغريب وجد له تحيّزًا مشخّصًا من خلال الأجهزة الاصطلاحيّة والأرضيّة المفهوميّة التّي عملت الأوساط الأكاديميّة على الإقرار بها وإجرائها ضمن البحوث والدّراسات. وهذا الجهاز النّظري سهّل على الغزو بسط نفوذه بشكل متعيّن. وهكذا أصبح التّغريب شاملًا لعديد النّواحي الاجتماعيّة والسّياسيّة والثّقافيّة.[7]

إنّ مجتمعًا تقوده نخبة متغرّبة يعيش على شفا جرفٍ هار، وتسود الفوضى مختلف أوساطه، ويعمّ التّوتّر مختلف علاقته ، فلا غرو حينئذ أن يعيش شباب الأمّة الغربة المضاعفة، والجفاف النّفسي، ويشكو من ضعف الدّفق الرّوحي، فتكثر موجات الانتحار فيه، ويعصف الموت بحياة الشّباب الذّي يفترض فيه الأمل والطّموح، وحبّ الحياة والتّعلّق بها، وتكتسحه موجات الهجرة غير النّظاميّة، وضمنها يلاقي الشّباب أبشع أنواع المصير، وتتعاظم موجات الإرهاب يومًا بعد يوم. وما ذلك إلّا تعبير عن إفلاس البدائل النّظريّة وفراغ الطّروحات الفكريّة التّي روّجت لها النّخب الأكاديميّة المرتمية في أحضان التّغريب.

إنّ الذّي حدا ببعض الدّارسين لظاهرة التّغريب وأخطارها مثل "طارق البشري" إلى القول: " يبدو لي أنّ الغلوّ يسمّى بدرجات شتّى وأشكال متنوّعة وعلى فترات ممتدّة أو متقطّعة، ما بقيت هيمنة التّغريب ولن يضف إلّا بضعفها" [8] هو أنّ الهيمنة التّي يمارسها التّغريب على المجتمعات المستهدفة بالعمليّة التّغريبيّة لا تدَع حركة النّمو الاجتماعي يتطوّر بطريقة طبيعيّة، وإنّما تجعل حركة هذه المجتمعات تخضع إلى مبدأ ردود الأفعال. وردّة الفعل متوتّرة بطبعها لأنّها أبعد ما يكون عن التّعقّل والحسابات المنطقيّة. فالأفكار التّي يزرعها التّغريب الأكاديمي هي أفكار قاتلة على حدّ

---

[7]- انظر محمّد مصطفى هدّارة، التّغريب وأثره في الشّعر، مقال في مجلّة الأدب الإسلاميّة، مج 1، ع2، سنة 1994، ص7 وما بعدها.

[8] - طارق البشري، سيبقى الغلو ما بقي التّغريب، مقال منشور بمجلّة العربي، ع 278، جانفي 82، ص61

عبارة "مالك بن نبيّ". وضرر هذه الأفكار القاتلة يتجسّد في خيانتها لنماذجها المثاليّة وتسرّبها إلى مجتمع غير قادر على هضمها وفاقد الحصانة ضدّها بما هي عناصر وافدة. "إنّ الأفكار الميّتة تنتقم بتجميد التّقدم والأفكار القاتلة تنتقم بتدمير التّقدم"[9]. لأنّها تقتل كلّ الخلايا الحيويّة في جسم القيم والأخلاق والأفكار، وتقتل العقل والنّفس على رأي "شلتاغ عبّود".[10]

فلا يمكن، على هذه الصّورة، فصل التّيّار التّغريبي على العلاقات الدّوليّة الجائرة التّي ترتكز وفق علاقة الأطراف بالمركز، إذ يجنح هذا التّيّار إلى تغليب الصّوت الواحد لأنّه ينهض على تنفيذ استراتيجيّة مسطّرة مسبقًا، ويروم تحقيق أهداف مقدّرة أوّلًا، وهي سوْق العالم في اتّجاه واحد ومعاملة مواطنيه على أنّهم مجرّد أرقام يمكن تعليبهم والتّحكّم فيهم عن بعد. ولا أدلّ على ذلك من توجّهات "هاملتن جب" في كتابه وجهة الإسلام حيث يحرص على معرفة حركة تغريب الشّرق والوقوف على العوامل الّتي تحول دون تحقيق هذا التّغريب. وهو ما يتناغم تمامًا مع جهود علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا في بادئ الأمر إلى دراسة المجتمعات البدائيّة لا من أجل الأخذ بأيديها ومساعدتها على تخطّي الصّعوبات، وإنّما ذلك لأجل التّمكّن منها والسّيطرة عليها كما بدا ذلك في أعمال "لفي بريل".

لقد تصدّى "عمر فرّوخ و مصطفى الخالدي" في كتابهما " التّبشير والاستعمار"[11] إلى فضح المخطّطات التّغريبيّة العاصفة بمقدّرات الحضارة المعنويّة والأدبيّة، وعليه يتّضح أنّ خطر التّغريب أشدّ وأنكى على الحضارة الإسلاميّة من الاستعمار المباشر؛ لأنّ العدوّ المباشر يصرّح بوجوده ويعلن عن نفسه، ومن ثمّ يسهل تجنّبه أو التّصدّي له. أمّا العدوّ الخفيّ المبطّن فيصعب التّفطّن إليه، ولا سيَّما من عموم النّاس، وخاصّة إذا تغلّف بغلاف التّقدّم والتّحضّر والرّقي. وتسرّب إلى المجتمع من بوّابات الجامعة التّي تُفترض فيها الموضوعيّة العلميّة ودقّة البحث الأكاديمي. وكلّ ذلك يسوّق تبعًا لتلقّي النّخبة لتكوينها وتعليمها في الجامعات الغربيّة. وعلى هذه الصّورة مثّل المتخرّجون من الجامعات الغربيّة الأمناء على مصالح الغرب بالوكالة وهم يقدّمون أنفسهم على

---

[9] - مالك بن نبيّ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلاميّ، تعريب محمّ عبد العظيم علي، دار الحكمة للنّشر والتّوزيع ، تونس، سنة 1985، ص 207.

[10]- انظر شلتاغ عبّود، في المصطلح الثّقافي والتّغريب، مقال منشور بمجلّة التّغريب، مجلّة " آفاق الثّقافة والتّراث" ع 33، س 9، أفريل 2001، ص54.

[11]- عمر فروخ ومصطفى الخالدي – التبشير والاستعمار- منشورات المكتبة العصريّة، صيدا، بيروت، سنة 1953- ص 25.

أنّهم متشبّعون بالمناهج العصريّة وطرائق التّفكير الجديدة وهم في حقيقة الأمر ليسوا كذلك لأنّهم أبعد ما يكون عن الفصل بين الذّات والموضوع.

4- التغريب المعرفي ونقد الاستشراق

من أبرز المحاولات النقدية التي طاولت التغريب الأكاديمي والمعرفي ما تضمنه كتاب "إدوارد سعيد" «الاستشراق» (Orientalism) الصادر في العام (1978م)، وهو كتاب كان له أثر كبير وإسهام عظيم في إرساء أسس ودعائم نظرية ما بعد الاستعمار. يعالج "سعيد" في هذا الكتاب العلاقة بين الهيمنة الكولونيالية والثقافة، ويقطع فيه شوطًا طويلًا في تحليل الخطاب الاستشراقي مبيّنًا أنه ليس كما يدُّعى أنه مجرد فرع معرفي حيادي بل تخترقه حتى النخاع علاقات القوة والسلطة، فدراسات المستشرقين عن (الشرق) خدمت إلى حدٍ كبير المخطط الاستعماري الهادف إلى إخضاع الشعوب الشرقية لسيطرته واستغلالها لمصالحه[12]. وهكذا يمضي "سعيد: ليبيّن آليات الهيمنة والاستحواذ عبر إعادة تشكيل الوعي العام من خلال الإرساليات والجامعات والمعاهد الأكاديمية.

أما في كتابه «الثقافة والإمبريالية» (Culture and Imperialism) الصادر سنة (1993)، حيث يقوم بتوسيع إطار التحليل ليشمل أماكن أخرى أبعد من الشرق العربي والشرق الأدنى الإسلامي، كالهند على سبيل المثال. وكذلك قام فيه بدراسة حركات المقاومة، و تحدث فيه عن إرادة الآخرين لمقاومة إرادة الإمبريالية، إضافة إلى الأعمال المعارضة التي قام بها مثقفون أوروبيون وأميركيون وعلماء لا يمكن اعتبارهم جزءًا من بنية شيء مثل الاستشراق[13].

لقد هَدَفَ "سعيد" من خلال كتاباته المتعددة إلى اختراق حجب التقاليد الثقافية الغربية التي شُيدت على مدى عقود طويلة في القرنين الماضيين. وعالجت كتاباته بشكل موسع وعميق، الهيمنة الأكاديمية التي مارسها الغرب على الشرق والجنوب، وركزت هذه الكتابات بشكل خاص على

---

[12]- مجدي عز الدين حسن – نقد الكولونيالية من منظور إدوارد سعيد – مجلة "الاستغراب" العدد الثاني عشر – صيف 2018.

[13]- إدوارد سعيد، السلطة والسياسة والثقافة، ترجمة نائلة قلقيلي حجازي، دار الآداب، بيروت، ط1، 2008م، ص 208.

دراسة العلاقة بين الشرق (وتحديدًا الشرق الأدنى الإسلامي والعربي) وبين الغرب تحديدًا (فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة). حيث تم رصد تلك العلاقة منذ غزو نابليون بونابرت لمصر في أواخر القرن الثامن عشر، مرورًا بتناول الفترة الاستعمارية الرئيسة والتي تزامنت معها نشأة دراسات المستشرقين الحديثة في أوربا، وانتهاءً بالهيمنة الإمبريالية البريطانية والفرنسية على الشرق بعد الحرب العالمية الثانية وظهور السيطرة الأميركية في الوقت نفسه . وعن طريق فرض هذا التمركز الأوروبي، استطاع الغرب الكولونيالي فرض هيمنته وسيطرته على بقاع بعيدة عنه كإفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية. هذه السطوة من جانب المركزية الأوروبية ما كان لها أن تتم إلا على حساب تهميش كل ما يقع خارج محيط دائرة الحضارة الأوروبية، وما أنتجته هذه الأخيرة من معارف ورؤى وتصورات وقيم للموضوع الكلي المركب من ثلاثية الإنسان والعالم والله[14].

وعلى النسق المعرفي نفسه سنجد أن التغريب الأكاديمي أخذ مساحة مركزية في أعمال "إدوارد سعيد"، باعتباره العامل الأبرز والآخر في صناعة الغربي بين النخب العربية والإسلامية في الشرق. وفي سياق سعيه إلى ربط العملية التغريبية بالمنطق الأساسي الذي يحكم الغرب حيال الشرق راح يبيّن كيف قام التسويغ العقلي للإمبريالية على ما يسمى (عبء الرجل الأبيض)، وعلى مهمة نشر الحضارة، ونشر قيم التحضر والتمدن، وحقوق الإنسان، واليوم أصبح يتمثل في ما يدعى (الحرب على الإرهاب) و (النضال من أجل الديمقراطية)، ويستشهد "سعيد" بما ورد في بعض خطابات الرؤساء المتعاقبين على رئاسة الولايات المتحدة الأميركية، من أنهم يقاتلون لأجل نصرة الخير في مقابل الشر، وأنهم لا يهدفون إلا لنشر القيم الديمقراطية، القيم الأميركية، في كل أنحاء العالم. والخلاصة أنهم لا يتحدثون أبدًا عن الهدم والتدمير، ولكنهم يتحدثون في الحقيقة عن إهداء التنوير والحضارة والسلام والتقدم للناس[15].

مثل هذا التطور في مسار العلاقة الهيمنية بين الغرب الاستعماري والشرق العربي الإسلامي سيفضي إلى ما يسميه "إدوارد سعيد" بـ (التشرنق العرقي الأوربي).وهو حالة غربية لا شعورية كامنة خلف طرائق البحث الغربي ومناهجه والتي أدّت، في محصلتها النهائية، إلى حشر كل

---

[14]- مجدي عز الدين حسن – المصدر نفسه.

[15]- راجع: إدوارد سعيد، الثقافة والمقاومة، ترجمة علاء الدين أبو زينة، دار الآداب، ص 166.

الثقافات غير الأوربية، والأدنى منها، إلى موقع من مواقع التبعية. وهكذا تبدو العملية التغريبية حاضرة في صميم الاستشراق وتحتل حيزًا يماثل تمامًا موقع المستعمرة المفيدة للنصوص والثقافة الأوروبية[16].

في هذا المقام يوازي بين نشأة دراسات الاستشراق من جهة، وبين بداية الاستعمار الأوروبي للعالم، من الجهة الأخرى. ويرى أهمية الدور الكبير الذي قام به الباحثون الغربيون المشتغلون في حقل الاستشراق في تعزيز وإدامة مصالح الغرب الكولونيالي[17]. ثم يضرب مثلًا بما قاله "ماكولي" عن التربية الهندية، عام (1835م) في محضر اجتماع رسمي: «ليس لي أيّ معرفة لا بالسينسكريتية ولا بالعربية، ولكنني فعلت ما بوسعي لتكوين تقويم دقيق لقيمة كل منهما. لقد قرأت ترجمات لأشهر الأعمال العربية والسنسكريتية. ولقد تحادثت، هنا وفي الوطن، مع أناس متميزين بكفاءاتهم في اللغات الشرقية. بيد أنني ما وجدت واحدًا منهم بمقدوره أن يدحض حقيقة كون رف واحد من مكتبة أوربية جيدة يساوي كل الأدب المحلي للهند والجزيرة العربية. إن السمو الجوهري للأدب الغربي محط الإقرار التام فعلًا من قبل أولئك الأعضاء الذين يشكلون اللجنة والذين يدعمون الخطة الشرقية في التعليم. وليس من المبالغة أن نقول إن كل المعلومات التأريخية المجموعة في اللغة السنسكريتية أقل قيمة مما قد يوجد في تلك الملخصات المبتذلة والمستخدمة في المدارس الإعدادية في إنكلترا، وفي كل فرع من فروع الفلسفة الأخلاقية والمادية نجد أن المكان النسبي لهاتين الأمتين هو نفسه تقريبًا»[18].

ذلك القول هو في الواقع - كما يقول سعيد - دليل على التشرنق العرقي، بل أكثر من ذلك، لأن رأي "ماكولي" ما هو إلا تصور غارق في صميم التشرنق العرقي وذو نتائج مؤكدة. إذ إن "ماكولي" كان يتحدث من موقع السلطة حيث كان بوسعه ترجمة تصوراته إلى قرار يأمر سكان شبه قارة بأسرها أن يذعنوا للدراسة بلغة غير لغتهم الأم. وهذا ما حدث في حقيقة الأمر»[19].

---

[16]- مجدي عز الدين حسن – المصدر نفسه.

[17]- إدوارد سعيد، العالم والنص والناقد، ترجمة: عبد الكريم محفوظ، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، 2000، ص 55-56.

[18]- إدوارد سعيد، العالم والنص والناقد، مصدر سابق الذكر، ص17.

[19]- المصدر السابق نفسه، ص 17-18.

ويقدم "سعيد" مثالًا ثانيًا، من كتاب "إيريك ستوكس": (النفعيون الإنكليز والهند)، حيث تحدث "ستوكس" عن أهمية الفلسفة النفعية للحكم البريطاني في الهند. يكتب "سعيد" معلقًا: «يتعجب المرء في كتاب ستوكس من الكيفية التي تتمكن بها زمرة قليلة من المفكرين نسبيًّا، من بينهم بينتام وجون ستيوارت ميل، من الإتيان بالحجج لتعزيز مذهب فلسفي واستكماله لحكم الهند، مذهب ينطوي في بعض جوانبه على تشابه لا يرقى إليه الشك مع آراء آرنولد وماكولي في الثقافة الأوربية من أنها أسمى من كل ما عداها. فها هو جون ستيوارت ميل يحتل اليوم بين (نفعيي البيت الهندي) منزلة ثقافية مرموقة إلى الحد الذي جعل آراءه عن الحرية والحكومة التمثيلية تدور على ألسنة أجيال وأجيال على أنها المقولة الثقافية الليبرالية المتطورة حول هذه القضايا. ولكن عن ميل كان على ستوكس أن يقول ما يلي: (لقد أفاد جون ستيوارت في كتيبه عن الحرية قائلًا بدقة متناهية أن مبادئ الحرية مقصود تطبيقها حصرًا على تلك البلدان التي تطورت تطورًا كافيًا في مضمار الحضارة ليكون بمقدورها تسوية شؤونها بالبحث العقلاني. وعلاوة على ذلك كان مخلصًا لأبيه في تشبثه بالاعتقاد أن الهند ما كان بالإمكان حكمها وقتذاك إلا بشكل استبدادي. ولكن على الرغم من أنه كان يرفض، هو نفسه، تطبيق تعاليم الحرية والحكومة التمثيلية في الهند، فإن حفنة ضئيلة من الليبراليين الراديكاليين وجمهرة متكاثرة من المثقفين الهنود لم يضعوا أمثال هذه القيود). وكما يقول "سعيد"، فإن لمحة خاطفة على آخر فصل في «الحكومة التمثيلية» – ناهيك عن التطرق إلى المقطع الوارد في المجلد الثالث من «مقالات وبحوث» حيث يتحدث عن تغييب الحقوق بالنسبة للبرابرة – توضح بمنتهى الجلاء رأي ميل الذي قال فيه إن ما كان عليه أن يقوله عن هذا الأمر لا يمكن تطبيقه بالفعل على الهند، والسبب بالأساس أن رأي ثقافته بحضارة الهند هو أنها لم تكن وقتها قد بلغت بعد درجة التطور المطلوب[20].

إن تأريخ الفكر الغربي بأسره إبّان القرن التاسع عشر، حسب ما يذهب سعيد، مليء بأمثال هذه التخرصات والتمييزات بين ما هو مناسب لنا (أي الأوروبيين) وما هو مناسب لهم (غير الأوروبيين)، إذ إن الأوائل مصنفون بأنهم في الداخل، في المكان الصحيح، مألوفون، منتمون، وباختصار فهم فوق، والمثاني مصنفون على أنهم في الخارج، ثنوى، شواذ، تبع، وباختصار فهم

[20]- إدوارد سعيد، العالم والنص والناقد، مصدر سابق الذكر، ص 18.

تحت. فمن هذه التمييزات، التي حظيت بسطوتها من خلال الثقافة، ما كان بوسع أي امرئ أن يتفلت منها حتى "ماركس" نفسه. إن النظرة للثقافة الأوربية على أنها المعيار الممتاز حمل معه زمرة مرعبة من التمييزات بين ما لنا وما لهم، بين الملائم وغير الملائم، وبين الأوربي وغير الأوربي، وبين الأعلى والأدنى، فهذه هي التمييزات التي يقع عليها المرء في أي مكان في موضوعات من أمثال علم اللغة والتأريخ ونظرية العرق والفلسفة والأنتروبولوجيا، لا بل حتى البيولوجيا[21].

هذا هو الوجه القبيح للكولونيالية الثقافية والفكرية، والذي قام "سعيد" بتعريته في مجمل كتاباته، وهو يرى أن الكولونيالية الثقافية نجحت في دمج منظور المستعمِر (بكسر الميم) في رؤى الشعوب المستعمَرة، حتى شعرت هذه الأخيرة بأنها غير قادرة على فعل أي شيء دون وصاية الأول ودعمه، وفهمت كذلك أن التشريع لا ينبغي أن يصدر من ثقافة وقيم مجتمعاتها، ولكن من مجتمع الأول وقيمه هو[22].

5- التغريب الأكاديمي في دراسات ما بعد الاستعمار

إذا أقررنا أن دراسات ما بعد الاستعمار هي: مرتبطة بدقة، بواقعة تأريخية محددة، أي الماضي الاستعماري للعالم الغربي، فإن هذه الدراسات ستأخذ مساحة واسعة في بيان وقائع التغريب الأكاديمي والمعرفي. وبالمقابل إذا رأينا أنها حقًّا حجة فرعية، لنقد استبانات العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية، فسنلاحظ إلى أي درجة لا تني تتجدد، بمقتضى عقل الزمن أو المسائل التي تنشأ، آنذاك، أعتقد أن الإجابة ستختلف. فأحد النقاشات الضخمة التي دارت داخل وحول دراسات ما بعد الاستعمار. في البلدان الأنكلوسكسونية ،خلال العقد الأول من هذا القرن ،كانت لمعرفة إذا ما كانت الإمكانات النقدية والمردود الفكري لدراسات ما بعد الاستعمار، تستطيع أن تحافظ على بقائها مع العولمة، ومع التغييرات الكبيرة، لتوازن القوى في العالم، بحيث يبدو أن التوازن الاستعماري لم يعد من مكوّنات الواقع، إذ إن عددًا من مفكري مرحلة ما بعد الاستعمار لاحظوا ذلك بأنفسهم وتوقعوا أن تكون استبانات ما بعد الاستعمار، في طريقها إلى الاختفاء، وأنها ستخلي مكانها قريبًا

---

[21]- نفس المصدر السابق، ص 18-19.

[22]- راجع: إدوارد سعيد، القلم والسيف، حوار دافيد بارساميان، ترجمة توفيق الأسدي، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق، ط1، 1998م، ص 134.

لشيء آخر. ينبغي أن نرى جيدًا، من هذا الموقع، أن ثمة فكرة ما نسميه العولمة، التي هي ظاهرة جذرية بجدتها. وعليه فإن النقاش حول هذه المسألة، أبعد من أن يقفل، فالقرابة بين الاستعمار أو بالحري مرحلة السيطرة الاستعمارية، وعولمة اليوم قد أوضحها عدد كبير من المحللين. والعولمة- استخدم الكلمة الإنكليزية -globalisation- ليست سوى التمدد الأقصى لما كانت عليه إمبريالية المرحلة الاستعمارية. وبالتأكيد لا يزال هناك الكثير، مما ينبغي فعله لنفهم العالم، الذي نعيش فيه اليوم، بالأدوات التي كانت بحوزتنا لشرح نظام العالم منذ قرن. ولكن هذا النقاش لم يقفل مرة أخرى، فدراسات ما بعد الاستعمار، هي بصدد دمج عدد كبير من الأبحاث (هي في الحقيقة مرتبطة بعمق بما كانت عليه في البداية) التي تأخذ في الحسبان ظاهرات معاصرة جدًّا. إذ إن عددًا من فروع دراسات ما بعد الاستعمار، غيّرت اسمها من «ما بعد الاستعمار» (poscolonial) ليصير «عابر للاستعمار» (transcolonial). ويبدو أنها تُطوِّر استبانات متمحورة حول مسألة الهيمنة، باتجاه استبانات تتناول أكثر حقائق التنقل، التبادل، التعايش، وتدفق المهاجرين. إننا نسير باتجاه اندماج (fusion) هذين الحقلين: دراسات ما بعد الاستعمار ودراسات العولمة. ويمكن أن نفكّر في هذا الوضع المتحرك، أن دراسات ما بعد الاستعمار، في طريقها إلى التحوّل باتجاهٍ يعطيها عقد إيجار غير محدود، أو على أيّ حال، بأفق بعيد جدًّا. والمسألة بعد ذلك هي في معرفة إذا ما لا زلنا نستطيع تحديد حقل دراسات متقلّب، إلى هذا الحد، والصحيح أن دراسات ما بعد الاستعمار، تتطور منذ البداية في مناخ متعدد الاختصاصات (transdisaplinaire)، وفي جوّ جدلٍ مستمر، وكانت تطمح لأن تكون محل استبانات متقاطعة، ذات نزعةٍ لاستثمار حقول الدراسات من الداخل، ولفتحها وخلع إطاراتها ثمة شيء متكافئ مع الدراسات من النوع نفسه. ويمكن اعتبارها حقل دراسات خاصا، ونستطيع أيضًا اعتبار أن مسألة النوع، تطرح في كل ميادين الدراسات، وأن ببساطة ثمة في كل حقل دراسة نمطًا من الاستبانات يجعل تكاملية الحقل المعنيّ في موضع اتهام. وينبغي الاعتراف أن دراسات ما بعد الاستعمار نفسها، تتبدل بطريقة أخرى، هي على حدود المعقول: نرى راهنًا من دراسات ما بعد الاستعمار، ما يُطبّق في الكرة الأرضية على مناطق لم تعرف أبدًا الاستعمار، مثل الشرق الأقصى الصيني أو الياباني. وكان أنْ أُنشئت نشرة في جامعة استوكهولم «أوروبا ما بعد الاستعمار» وهي تُعنى بأوروبا الوسطى والشرقية، وتطبق دراسات ما بعد الاستعمار، على مراحل من التأريخ، هي خارج هذا الحقل كليًّا. إنك تجد دراسات ما بعد استعمار،

تُطبق على العصور القديمة، وفي مجالات لم يعد لها علاقة تَمَاهٍ مع ما عنته أصلًا، وعلى سبيل المثال، دراسات إنجيلية ما بعد استعمارية. ولديك نزعة ما بعد الاستعمار، في الدراسات البصرية، وفي دراسات الإعلام. وعلى هذا الشكل، فإن الدراسات ما بعد الاستعمارية، تملك كل المستقبل الذي يمكن أن تطمح إليه![23]

وتظلّ العلاقات بين الثّقافات و الحضارات موضوعًا جذّابًا للتّفكر والتّأمل. وإذا تنوّعت ضروب الاستعمار، عسكري وسياسي، فإنّ الاستعمار الأكاديمي والثّقافي أكثر انتشارًا بين النّاس لأنّه يسعى إلى السيّطرة على العقول والأذواق تهدف إلى تغيّير العلاقات بين الشّعوب و الدّول وعندئذ تسهل الهيمنة وبسط النفوذ، وعندما تُغرس القابليّة للاستعمار في الأنفس والأذهان اطمأن الاستعمار على مصالحه دون إسالة الدّماء و تكبّد الخسارات الماديّة و المعنويّة .

إنّ الاستعمار الأكاديمي يهدف إلى ترويج برامجه وسياسته باسم العلم والمعرفة والتّقدم. وبالفعل يعمل على غرس أدوات إنتاج المعرفة ومناهجها فيتزيّا بزيّ العلم والثّقافة والفكر فيتحوّل إلى ظاهرة ناعمة ومرغوبة. لقد عمد الاستعمار الأكاديمي إلى ترويج فكرة أساسيّة هي أنّ العلم مسألة مشتركة بين الناس ولا جنسيّة له، كما أنّ طريق التّقدم بين الخليقة واحد فالإنسانية ذات مصير مشترك و قد عمل الجنرال نابليون في حملته على مصر على التّركيز على دور النّخبة وأثرها في تغيير أنماط الّتّفكير والسّلوك والذّوق. وكذلك فعل الإسكندر قبله حين عمل على ترويج الثقافة اليونانيّة في المستعمرات اليونانيّة. والملاحظ في مثل هذا الاستعمار الثّقافي هو أنّه لا يرتبط بالضّرورة بقوة الدّولة الغازيّة، فقد تتدهور أصول الدّولة المتعاظمة ولكن النّخبة يتواصل تأثيرها في التّفكير. فالأثر الثّقافي يستمرّ بعد زوال التّأثير العسكري؛ لأنّه أشدّ بقاءً واستمرارًا وأكثر دوامًا من السيطرة على الأرض، ولأنّ الثقافة تستبدّ بالنّفوس والعقول. والمرء على ما يفكر فيه، والعقل هو كل شيء، و به فُضّل الإنسان على كل المخلوقات.

إنّ الاستعمار الثّقافي يستهدف قولبة العالم في أنماط وقوالب تضمن تدجين الشّعوب لغاية سوْقها في وجهة أعدّت سلفًا من الدّوائر الإمبريالية العالميّة، ولا فكاك للشّعوب التّائقة إلى التّحرر

[23]- حوار مع المؤرخ الفرنسي جاك بوشيباداس- ترجمة: صلاح عبد الله- مجلة "الاستغراب" العدد الثاني عشر – صيف 2018.

من العمل على إنتاج معرفة ذات مميّزات مخصوصة تضمن الحفاظ على الخصوصيّة و الهوية من أجل النّفاذ الى إحداث نظام من خارج النّظام العلمي المسيطر. وإذ تبدو هذه المهمّة متشعبة وصعبة ولا سيَّما في واقع بسطت فيه الثّورة الاتصالية يديْها على كل المجالات الثّقافية، فإنّ الإرادة في كسر الطّوْق إذا بُرمج لها تربويًا وثقافيًا فإنّ عنصر الزّمن كفيل بتحقيقها وانظر إلى تجارب ألمانيا واليابان والصين كيف استطاعت نحت معالم الشخصية الوطنية، فالأدب والفكر والفلسفة هي عوامل أساسية لإنتاج الهوية والخصوصية. وقد اهتمّ "مشال فوكو" بقيمة الإمبريالية الثّقافية وسلطتها في تغيير معالم الحقائق وإعادة تشكيل الواقع فعديد الموضوعات يتمّ إنشاؤها وإعادة إنشائها من خلال علاقات السّلطة المحدّدة ثقافيا فهي التي تطبع بقيّة السّلطات الأخرى .

لقد عمل الاستعمار الأكاديمي على تلميع صورته باسم "فلسفة الأنوار" من أجل التوغّل في النّفوس والعقول ومعاداة الظّلامية باعتبارها مصنوعًا استعماريًا في حاجة إلى مراجعة نقديّة وإلى مزيد التّمحيص، لأنّها كلمة حقّ أُريد بها المزيد من الهيمنة وبسط النّفوذ. وهو ما يتجلى في تنفيذ البرامج التعليمية وترويج السلع. ولا فرق بين بضاعة اقتصادية أو بضاعة ثقافية في ميزان الرأسمالية والليبرالية. فالديمقراطية الأمريكية هي الوجه الآخر للسّلاح المدعّم للاستعمار في فلسطين المحتلة. وانظر إلى فعل الاستعمار الأكاديمي في الأوساط الإفريقيّة كيف عمل على محو مكوّنات الثّقافة ومحتويات المعرفة كإبادة اللّغات و طمس معالم الفنون الأصيلة والأفكار الأصليّة لتشويه الهوية و طمس الحقائق. وما زالت النّيوليبرالية تستنبط الوسائل الكفيلة بالتّلاعب بالعقول عبر صناعة ما يسمّى بالرّأي العام العالمي عبر مراكز الدّراسات المختصة و ترويجها عبر المؤسسات العالمية.

لقد تلوّن الاستعمار الأكاديمي بألوان عديدة وتسمّى بمسميات متنوعة، و آخر مظهر له هو النّيوليبرالية. وما ذلك إلاّ عزف على معنى الجدّة، ولعب على وتر التّطوّر، طمعًا في الإقناع بمشاريعه التّنموية في مجالات الاجتماع والاقتصاد والسياسة والثّقافة والإعلام. ومازال الاستعمار الأكاديمي يعمل على تصدير مشاريعه في البلدان النّامية باعتبار الهشاشة التي تسمّ مجالات الحياة في هذه المجتمعات.

لقد أدرك الاستعمار الأكاديمي منذ وقت مبكّر أنّ التّماسك الثّقافي لدى الشّعوب هو صمّام الأمان الحامي لكلّ أمّة والضّامن لسلامة مستقبلها. ومن ثمّ كرّست الجهود لإعداد برامج تعمل على بلبلة المفاهيم و تغيير الأفكار. وبالأفكار يمكن التّحكم في المجتمعات عن بعد وبأيسر الجهود والوسائل.

إنّ الجدير بالملاحظة هو أنّ تصدير الاستعمار الأكاديمي أصبح جزءًا مِنْ المقررات الرسميّة لدى الدّوائر الدّولية العالميّة، وقد ساعدت الشّبكة العنكبوتيّة على تعميق التّفوق الثّقافي الغربي. فلا غرو في أنْ تلمّع صورة الحروب والإبادة العرقيّة باسم مقاومة الإرهاب أو التّعصّب الدّيني.

والواضح أنّ التّوغّل في الأوساط الثّقافيّة باسم التّسامح الدّيني أو الحوار بيْن الحضارات أو الثّقافات هوّ الميْسم الأسمى للإقناع بأنّ كلّ مُعرض عن هذا الحوار أو دعوى التّسامح يُعتبر رجعيًّا غير مواكب لحركة التّقدّم و التّحضر.

إنّ الحلّ الجوهري أمام المجتمعات النّاميّة هوّ تثوير التّعليم عبر إنتاج البرامج والمقرّرات التّعليميّة والمخططات الثّقافيّة تقاوم الإمبرياليّة والتّصدّي لمشاريع الغرب الاستعماريّة المعمقّة للتّبعيّة و الانسلاب. فعمليّة فكّ الأسر منْ قيود العولمة والاستعمار الأكاديمي إنّما تتمّ بمقاومة النّموذج السّائد بالقوة والعلاقات الجائرة عبر التّعامل القسري. إنّ إنتاج المعرفة هو الحلّ الأساسي الموصل إلى التّحرر عبر تحرير العقول. فالإنسان الفّعال والمجتمع الحيّ هما الحلّ الجذريّ لصناعة مستقبل آمل وسعادة منشودة.

6- خاتمة نقدية

آفاق جديدة للتغريب الأكاديمي

لمّا كان الوجه الحقيقي للغرب مخفيًّا، كان دعاة الإصلاح بالاستفادة من الغرب معذورين في اعتبارهم أنّ طريق التّقدّم واحد يتمثّل في الإصلاح الزّراعي، والتّنظيمات السّياسيّة، والفصل بين السّلطات، وتحديد المناهج التّربويّة والتّعليميّة. ولكنّ دعاة التّغريب غير معذورين لأنّ حقيقة أمر الغرب قد أصبحت واضحة جليّة. وعمادها حركات توسّع وإرادة هيمنة ورغبة في التّفوّق لقيادة العالم بالقوّة والغطرسة. وهكذا تتعاظم المسؤوليّة على من أدرك الحقّ وأغضى عنه.

لقد كان حريًّا برجال التّربية والتّعليم في أرقى درجاتهما أن يحلّلوا أوجه الغرب الإيجابيّة، وأن يميطوا اللّثام على عيوبه ومساوئه بدلًا من الانضواء في حملات دعائيّة وإشهاريّة فجّة. كما كان عليهم أن يكشفوا عن حقيقة أفكار ومبادئ نمت وترعرعت في تربة ثقافيّة مختلفة وفي فضاء حضاريّ مغاير. والتّراث الذّي ظلّ هدفًا لأصحاب الاستعمار الأكاديمي هوّ في حقيقة الأمر صمّام أمان وملجأ آمن لمن أراد التّزوّد منه ومراجعة ما بدا غير ملائم للعصر. لا أن يرمى به عرض الحائط كما يدّعي التّغريبيون جملة وتفصيلًا وأنّى لهم ذلك. فالتّراث ليس بضاعة ماديّة فمنه ما هو مادّيّ ومنه ما هوّ غير مادّي ولا مرئي. وهو مخزون نفسي يشكّل أعمارًا وماضيًا يعيش حيًّا نابضًا في العصر. وأكثر من ذلك أنّ محاولات التّقدّم التّي تنهض على فهم التّراث وإعادة فهمه هي أكثر تجذّرًا والأكثر تأثيرًا في المستقبّل. فلا حاضر دون ماضٍ ولا مستقبل دون حاضر.

ويبدو أنّ أفضل طريق لمقاومة التّغريب إنّما هوّ تشجيع حركة التّعريب نشرًا للّسان العربي للقارئ بما يفكّر فيه الآخر حتّى تتوسّع دوائر الاطّلاع والحوار والنّقد.

لمّا ذبُل العطاء الفكري في الحضارة الإسلاميّة وسُدّت منافذ التّفكير، وأعلن عن غلق أبواب الاجتهاد عمّ التّقليد الّذي لا يشهد له العقل بالتّأييد، على حدّ عبارة أبي حامد الغزالي في كتابه المستصفى من أصول الفقه. وعندئذٍ آذنت الدّورة الحضاريّة بالانتقال إلى الضّفّة الشّماليّة والغربيّة من الكرة الأرضيّة. وبتصاعد هذه الحضارة عمل مؤسّسوها على إرساء دعائم تضمن استمرارها في التأريخ. ولعلَّ من أخطر هذه الدّعائم التّعويل على النّخب الأكاديميّة والتّرويج الفعّال لكلّ ما من شأنه أن يخرّب بناء الذّات الإنسانيّة في مجتمعاتنا العربية والإسلامية المعاصرة. ودعوى هذا وحدة المصير الإنساني المشترك، وأنّ طريق التّقدّم واحد، وأنّ الحداثة واحدة وأنّها تيّار جارف يدكّ كلّ من عارضه، وأنّ الماضي ومكوّناته أمور بالية تشدّ إلى الوراء وتعوق حركة التّقدّم. وكلّ ذلك دعاوى مجانبة للصّواب لأنّ الحضارة الغربيّة ذاتها تعود إلى قديم الحضارة اليونانيّة، وأنّ الماضي هو الحقل الثّقافي والفكري والمعرفي الذّي لا ينضب، وأنّ الحداثة حداثات، وأنّ اشتراك الإنسانيّة في كثير من عناصر المصير المشترك لا يقضي بحال على الخصوصيّات الثّقافيّة والانتماءات المتنوّعة والمختلفة. وهكذا يتبيَّن لنا أنّ التّغريب الأكاديمي هوّ مجرّد أداة تحجب فعّاليّة الرّغبة في

الهيمنة والسّيطرة ما يناقض جوهريًّا العمل الأكاديمي الّذي يقوم أساسًا على الموضوعيّة والجديّة والبحث الدّقيق والتّمحيص العميق من أجل إزاحة الحُجب عن الحقائق المخفيّة.

المراجع

1. انظر ناجي الحجلاوي، التفكير الاجتماعي عند مالك بن نبي، الدّار التّونسيّة للكتاب، ط 1، تونس، سنة 2011،

2. أبو القاسم حاج حمد، منهجيّة القرآن المعرفيّة، دار الهادي للنّشر والتّوزيع، ط1، س2003،

3. انظر شلتاغ عبّود، في المصطلح الثّقافي والتّغريب، مقال منشور بمجلّة التّغريب، مجلّة " أفاق الثّقافة والتّراث" ع 33، س 9، أفريل 2001،

4. انظر محمّد مصطفى هدّارة، التّغريب وأثره في الشّعر، مقال في مجلّة الأدب الإسلاميّة، مج 1، ع2، سنة 1994.

5. سلامة موسى، اليوم والغد، مؤسّسة هنداوي سي آي سي، سنة 1991.

6. طارق البشري، سيبقى الغلو ما بقي التّغريب، مقال منشور بمجلّة العربي، ع 278، جانفي 82،

7. عبد الرّحمان بن خلدون، المقدّمة، دار عالم الثّقافة للنّشر والتّوزيع، وبالتّحديد الفصل الثّالث والعشرون: في أنّ المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده.

8. عمر فرّوخ ومصطفى الخالدي، التّبشير والاستعمار، منشورات المكتبة العصريّة، صيدا، بيروت، سنة 1953.

9. مالك بن نبّي، شروط النّهضة، دار الفكر، دمشق،1979 م.

10. مشكلة الأفكار في العالم الإسلاميّ، تعريب محمّ عبد العظيم علي، دار الحكمة للنّشر والتّوزيع ، تونس، سنة 1985،

11. هاري ماجدوف، الإمبرياليّة من عصر الاستعمار حتّى اليوم، مؤسّسة الأبحاث العربيّة، ط1، س 1981